قضية.. و..؟ مليون قاض!

زهيرة البيلى

كان الزمان.. ليلة الخامس من يوليو عام ١٩٥٤، وكان المكان.. إحدى القرى الأمريكية الصغيرة على شاطئ بحيرة واسعة، حيث نام المأمور فى هدوء تام، لم يقطعه إلا صوت حارسه الخاص فى الثالثة صباحا.. فيقوم فزعا ليتلقى بلاغا:

لقد وقعت مأساة فى منزل الطبيب المعروف «أرمسترونج».

جاء البلاغ تليفونيا، من الطبيب نفسه، قال فيه:

«زوجتى فارقت الحياة.. كانت فى حجرة نومها... إنه شئ فظيع».

وعندما وصل المأمور كان الطبيب يرتدى بنطلونه، كان عارى الصدر، وقد غطت الكدمات وجهه فبدا تائها، ثم تطلع إليه المأمور: شاب فى الثانية والثلاثين. أنيق. تهافت عليه النساء، وهو فى هذه السن الصغيرة قد كون لنفسه مكانه مرموقة.

لقد فارقت زوجته الحياة. ماتت بطريقة بشعة كما كانت تنتظر مولودا..

كانت ممددة فى فراشها، وقد غطت الدماء جسدها كله، وبدأ وجهها مشوها نتيجا من أثر الضربات التى توضح أن القاتل انقض عليها بعنف عنيف.

أخذ الطبيب يشرح للمأمور أنهم أقاموا ليلة الحادث، بمناسبة عيد الاستقلال، حفلة بسيطة دعوا إليها بعض الأصدقاء وبعد انصراف المدعوين صعدت زوجته إلى الدور العلوى حيث حجرة نومها، بينما بقى هو بحجرة الصالون يشاهد التليفزيون. فعليه النوم وهو جالس فى مكانه.. وفى حوالى الثانية صباحا استيقظ فزعا على صراخ زوجته، فصعد السلم جريا، فإذا برجل أشعث يقف بنفسه عليه، ويتناول الرجلان الضربات. ليسقط الطبيب فى النهاية فاقداً الوعى. وعندما أفاق كان الرجل قد فر هاربا، وكانت زوجته قد فارقت الحياة.

كان الرجل الأشعث فى حالة هياج، فلم يتبين الطبيب ملامحه، خاصة أن المكان كان مظلما. ولم يعثر على السلاح الذى ارتكبت به الجريمة.

أخذ المأمور يتأمل الطبيب الشاب دون أن يدرى.. فهناك عدة تساؤلات فى حاجة إلى إيضاح. وسوف يكشف التحقيق عن ثغرات أخرى: لماذا لم يستيقظ ابن الطبيب – وهو طفل فى العاشرة من عمره – على صراخ أمه؟ ولماذا لم يسمع الجيران نباح الكلاب بحديقة الفيلا؟ كما أن الطبيب قد استغرق بعض الوقت قبل إبلاغ البوليس.. فلماذا؟ ثم أين اختفى قميص الطبيب وسترته وكان يرتديها فى الحفل، تلك الليلة؟ وكيف لم يترك القاتل خلفه أى دليل أو أثر أثناء هروبه؟

بقيت هذه الأسئلة بلا إجابات محددة، ولذلك كان الطبيب، من وجهة نظر البوليس مذنبا من الدرجة الأولى. فكان أن اهتم البوليس وعكف على البحث عن دافع محدد.. ولكن بدون جدوى.. ولذلك حاول إيجاد تحليل أو شرح مقنع لارتكاب الجريمة.

فالطبيب الشاب هو ثالث أبناء «أرمسترونج» الطبيب المعروف، الذى يملك مستشفى كبيرا يضم حوالى ٢٠٠ سرير. وأبناؤه الثلاثة أطباء متشابهون فى الشكل: العود الفارع، والأناقة، والشعر الذى يميل إلى الشيب.

والعائلة ثرية ومحترمة ومعروفة ونساؤها لايختلفن كثيرا.. نفس الوقار، ويتمتعن بنفس الطبقة أى أن المستوى الاجتماعى واحد، وأسلوب الحياة واحدة. وكان الطبيب الشاب يقدم خدماته المجانية للعمال. أما زوجته الشابة فركزت جهودها فى وقت فراغها فى الأعمال الخيرية، لكن الحقيقة تقول: إن حياة الطبيب وزوجته لم تكن مستقرة أو ناجحة، كما كان يبدو عليها، فقد أشيع عن الطبيب الشاب تعدد علاقاته النسائية، وعلى الأخص علاقته بمساعدته ولذلك جاءت عريضة الاتهام كالآتى: «تخلص الطبيب أرمسترونج من زوجته بعد نزاع نشب بينهما فجأة لقد قتلها حتى يقيم حياة جديدة مع مساعدته».

إنه افتراض بسيط وساذج لكنه الوحيد الذى يمكن طرحه الآن. وأثناء المرافعة أكد محامى الطبيب أنه ليس من حق النيابة إلقاء القبض على الطبيب، دامت لا تملك الأدلة الواضحة.

ولكن عندما تمسك الطبيب بروايته للأحداث التى تبعد عن المنطق، صدر الأمر بالقبض عليه.

كما أجمعت هيئة المحلفين على اتهامه وفتح التحقيق لأهم قضية عرفتها أمريكا، وأحدثت دويا هائلا. وعقدت جلساتها بمحكمة الجنايات. وكان القاضى يعرف أن القضية لصعوبتها سوف تطول: فقد مرت به قضايا كثيرة صعبة، إذ أنه فى السبعين من عمره أى قرب من سن المعاش.

كما أن هذه القضية بالذات تناولت مشكلة هامة وهى أزمة الضمير الأمريكى فى مواجهة مشكلة الطلاق. فقد اتهم الطبيب الشاب بقتل زوجته حتى يتخلص منها، بدلا من أن يطلقها، وأمام هذه القضية انقسمت أمريكا إلى ثلاث جماعات:

أولاها: الذين يعتبرون أنه من حق الزوج خيانة زوجته، دون إثارة مشكلات، بشرط ألا تدرى الزوجة.

وثانيها: الذين يعتقدون أن الرجل عندما يخون زوجته فهذا يعنى أنه لم يعد يحبها، وهنا يجوز الطلاق، وهناك الفريق الثالث وهو الذى يقر أن خيانة الرجل لزوجته جريمة فى حق الذات الأمريكية، وحتى تتحاشى هيئة المحلفين هذا التطرف كان كل شاهد يسأل عما إذا كان يعتبر الخيانة الزوجية أشد جرما من القتل؟.

فإذا تردد الشاهد ثانية واحدة قبل الإجابة. يرفض المحامى دعوته. وعندئذ لابد من ثلاثة أيام أخرى لتشكيل جلسة جديدة، وهيئة المحلفين لتتكون من سبعة رجال وخمس نساء. والمجموعة كلها شابة، تمثل الطبقة الأمريكية المتوسط من صغار تجار وعمال ميكانيكيين وسكرتيرة وباحثة، وكانت أنظارهم جميعا على المتهم.

خلف القضبان ظهر المتهم الشاب بملابسه السوداء، وقميصه الأبيض الناصع، وكان جادا يدعو إلى الاحترام، بشوش الوجه، واضح النظريات، وكان له تأثير طيب على القضاة، كما كان الحق العام للمحاكمة مرتاحا، حتى قبل أن تبدأ الجلسات. ولكن الطبيب الشاب لم يكن يتمتع بحب الشعب الأمريكى أو الصحفيين. لأنه يمثل تلك الطبقة البرجوازية العتيقة.

وبدأت الجلسة كأنها عمل استعراضى: أطفئ النور، وظهرت آلة العرض السينمائية بأضوائها، وعلت أصوات الهيئة القضائية، وفى القاعة حضر الجلسة لفيف من نجوم السينما والكتاب، وجمهور غفير، ونظر المتهم إلى الأرض وأحنى وجهه بين يديه. وظهرت آثارهما واضحة عندما أضئ النور من جديد. وقام وكيل النيابة بعرض صور التقطت من على المائدة الرخامية بالمشرحة. إنها صور مأساة للجثة المشوهة المهشمة، والمغرقة، نتيجة لـ ٣٥ طعنة بسلاح لم يعثر عليه، وعند تعاقب الصور أخذ الطبيب الشرعى يشرح بصوت رتيب طبيعة الجروح:

«الإصابة التاسعة عشرة، التى نزعها الآن جاءت من ضربة بآلة حادة، نفذت حتى العظام، على عكس الضربة الثالثة التى كان سببها أداة صدئة أحدثت بعض الرضوض. وكما تلاحظون فإن هذا النسوج العامل فى البشرة يعرف باسم الجيوب الزرقاء».

وبعد أن فتحت الجلسة بهذه الطريقة القاسية العنيفة تتابع الشهود. فأدلى ٢٥ شاهدا بشهاداتهم دون إثبات حقيق أو إدانة للمتهم. ولكن الدفاع من جانبه كان يعلم أنه ليس هناك دليل واحد على صحة أقوال الطبيب.

استمع الطبيب بكل انتباه وأدب دون انفعال لأقوال الشهود، ثم استدعى محاميه بإشارة من أصبعه، وتحدث إليه بصوت خافت، وابتسم لسيدات الهيئة القضائية، ولأفراد أسرته فلم يكن هناك ما يثير الاهتمام فى تلك المرافعات القضائية الطويلة، إلا تماسك وتضامن عائلة «أرمسترونج» حيث كان الإخوة وزوجاتهم أحسن دفاع عن المتهم.

ذلك أن تصرفاتهم كلها كانت بأنه صادق فى أقواله، وأنهم مقتنعون ببراءته!.

وجلس أفراد عائلة القتيلة إلى يمين القاضى. وظهر التناقض واضحا بين العائلتين.. وكانت الزوجة المسكينة ابنة رجل معتقل.. يتيمة الأم منذ الصغر، فنشأت فى بيت خالتها بعيدا عن الأب الذى انشغل بزواجه الثانى.. أى أن الأسرة مفككة... والحالة المادية أقل بكثير، وأن التربية لم تكن على الوجه الأكمل. ولذلك فلا أحد من عائلة «أرمسترونج» كان يعيرهم أى اهتمام.. ولا نظرة واحدة من نظراتهم الباردة..

الحد التحقيق أخيرا دائرة محددة حول مساعدة الطبيب، وهى امرأة سيئة، تم استدعاؤها للشهادة.. وقد انتظر الاتهام ومنبوو الفضائح الكثير من هذه الشهادة بالذات.. وتقدمت مساعدة الطبيب أمام المحكمة، تماما كما لو كانت مسوقة إلى حكم الإعدام، فكانت

ترتدى ثوبا محتشما من الحرير الأسود ، تزينه باقة من الورود البيضاء ، بلا مكياج على الوجه ، حتى إنه لم يبد عليها أنها امرأة مثيرة يتهافت عليها الرجال . وبدت كممرضة مخلصة فى عملها . ولكن من ذلك النوع الذى يشكل خطرا مستمرا لكل حياة زوجية مستقرة . ولم تظهر أى انفعال تجاه عشيقها ، وراحت تروى قصتها .

نعم . لقد قضيت مع الطبيب فى الربيع الماضى أربع ليال فى منزل أحد أصدقائه فى لونج ايلاند . وسألها القاضى بالتحديد عما إذا كانت قد شغلت نفس حجرة الطبيب . وبلا تردد قالت ببساطة ، إنها كانت عشيقة الطبيب ، وكان هذا منذ زمن وكانا يلتقيان مرارا فى سيارته أو فى عيادته الخاصة .

وعلى مدى أكثر من ساعة ظلت المساعدة ترد على أسئلة كلها تفاصيل ، فتحدثت كأنها تروى قصة إنسانة أخرى ، واستطاعت أن تتخلص بكل لباقة من هذه المحنة ، دون أن تأتى بدليل واحد ضد الطبيب الشاب ، وقالت إنها كانت تعلم أنه متزوج ، وأنه يحب زوجته . ولكن من وقت لآخر كانت تنتابه رغبة فى الطلاق إلا أنه لم يقرر أو يحدد هذا بالفعل ، وهنا سألها القاضى عما إذا كان الطبيب ، يحبها هى الأخرى ؟ فترددت قليلا ثم قالت : إن خطاباته لم تحمل إليها هذا المعنى . أو دليلا حقيقيا على هذا الحب .

وأصيب الاتهام وجمهور الحاضرين الذين حضروا ليشاهدوا احتلال حياة أسرة نجمة أمل كبيرة . إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام إحدى بطلات الشارع الخلفى ، أى المرأة التى تجرى وراء حب مستحيل ، فتخطو إلى الخيانة الزوجية فى المجتمع الأمريكى داخل سيارة أو بين جدران حجرات يتبادلها الأصدقاء . ولم يطلب الدفاع أكثر من هذا .

وكان تساؤل الجميع : ما هو الدافع إذن الذى يجعل الطبيب يقتل زوجته مادامت المساعدة كانت له كلما شاء ؟

أما المساعدة فكانت قد غادرت القاعة وقد التفت فى معطف من الفرو « الفيزون » المقلد ، بعد أن ألقت بنظرة إشفاق أخيرة على عشيقها .

وتركز الاتهام على ما وجده من معلومات : ألم يحدث أن تشاجر الطبيب مع زوجته لأنها قامت بشراء غسالة أطباق كهربائية ؟ نعم . حدث ولكن كان هذا منذ عشر سنوات . ألم يحدث أنهما تشاجرا لأنه اشترى سيارة « لنكولن » بينما تريد الزوجة سيارة « جاجوار » ؟ حدث ولكن كان هذا أيضا منذ سبعة أعوام . ومع ذلك فقد اشترى لها الزوج السيارة الجاجوار بالإضافة إلى السيارة الأولى ، وسيارة جيب ثالثة . وبقيت السيارات الثلاث فى حديقة بيتهما الرائعة بجانب ملعب التنس ، حيث تطل الفيلا على شاطىء البحيرة .

ألم يكن الطبيب من النوع العصبى المزاج ؟ هنا . حكى أحد الشهود أن الطبيب من كان يشاهد التليفزيون فى أحد الأيام ، وعندما جاء ابنه الذى كان يبلغ السادسة من العمر فى ذلك الوقت ليداعبه بحقائة سهم .. أحمر وجه الطبيب من شدة الغضب ، وأعطى لابنه ضربة قوية . هذا كل ما فى الأمر .

وعند هذا الحد انتهت الشهادة وتتابع الشهود الواحد بعد الآخر . ليغادر القضاة فى النهاية قاعة المحكمة ، سبعة رجال وخمس نساء ، أحد عشر من البيض وواحدة فقط ملونة . وفى ملابسه الرمادية وقميصه الأبيض وكرافتته السوداء ، بقى الطبيب الشاب فى صورة من ينتظر العقاب ، فبدا شاحبا بدون خوف ، وركز نظراته على القضاة وهم يخطون الواحد بعد الآخر وأحدثت القيود التى أطلقها الحارس على المعصم الجهنى للمتهم صوتا معدنيا بسيطا . وكان هذا دليلا على أن الجلسة قد رفعت . وتبادل الطبيب النظرات مع أحبته وزوجاتهم ، الذين بدوا كما لو كانوا لا يصدقون أن هذا النزاع الطويل الذى دام تسعة أسابيع قد انتهى حقا . وحمل المصعد الطبيب الشاب إلى زنزانته فى الدور العلوى حيث تبدأ رحلته مع الانتظار والوحدة .

بينما مصعد آخر قد حمل القضاة إلى دور أسفل حيث ملفات القضية : ٢ مليون كلمة و٧٠ شاهدا ، والبجاما التى تحمل بقع دماء وملاءات السرير الحمراء ، وقصاصات الأظافر والبنطلونات ، والصابون وجوارب وأشياء أخرى حجزت لمدة طويلة للفحص بحثا عن دليل .

وتشاورت الهيئة القضائية حول ثلاثة مناقد ، من بينها يتم اختيار واحد ، إنه قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد . وهذا يؤدى بالطبع للكرسى الكهربائى . أو طلب استعمال الرأفة مع المتهم . وفى هذه الحالة يتحول الحكم أوتوماتيكيا من عقوبة الإعدام إلى المؤبد . أو أنه عمد أدى إلى الموت بدون قصد أو عمد . وتمت دراسة قائمة العقوبات بالسجن مع محاولة القضاة بشتى الطرق لإيجاد إمكانية لاطلاق سراح الطبيب أو البراءة . وأيا كان القرار ، فلابد أن يجتمع آراء القضاة ، هكذا ينص القانون الأمريكى . ترقب مائتا مليون نسمة أمريكية بشغف قضية « ارمسترونج وشيبا فشيئا كون كل واحد منهم فكرة مسبقة عن إمكانيته إطلاق سراح المتهم الذى لم تثبت ادانته . وهذا لا يعنى أن يحكم له بالبراءة أو أنهم يحملون له مشاعر العطف ، فالصحافة لم تكن متعاطفة مع المتهم على الإطلاق ، ولم تكف عن إعطاء صورة مشوهة عنه للقراء . ولكن كانت المسألة مسألة مبدأ . فلا تمكن إدانة أى إنسان بلا دليل مادى وبدون أدلة كافية .

وفى هذه الأثناء أجرت عائلة ارمسترونج تحقيقها الخاص ، فافترضوا أن الطبيب المتهم قد رفض إعطاء الرجل الأشعث « الموفين » ولذلك جاء يفتش المنزل وفى ليته قتل الطبيب . وفى نفس الوقت ومع هذا الافتراض الجديد اعترف أحد المتسكعين فى الولايات المتحدة أنه دخل ليلة الحادث منزلا فى نفس الضاحية ، وأنه قام بقتل امرأة . ولم يهتم الباحث بتلك الدراسة التى انتهت إلى لا شىء ، كما لم يهتم الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون أو باقى وسائل الإعلام مطلقا بهذا الاعتراف . وتركزت الأنظار كلها نحو هيئة المحلفين . وأخيرا فى مساء يوم الأحد ، هبط المصعد بالطبيب حيث قاعة المحكمة ، ليصعد المصعد الآخر بالقضاة الذين جاءوا لينطقوا بالحكم .

بعد المداولة ادين الطبيب بقتل زوجته . ولم تعترف المحكمة بالقتل العمد مع سبق الاصرار والترصد . ولكنها أمرت باستمرار حبس المتهم .

تلقى الطبيب الشاب قرار المحكمة دون حراك وأخذ فقط يعض شفتيه . والتفت إلى القضاة ، وانطلق بصوت حازم قائلا :

إننى برىء ، وأصر على براءتى . وقد أتيت أمام المحكمة ، وبلا جدال ، فإننى لا يمكن أن أرتكب هذه الجريمة الشنعاء .

وبعد أن علمت والدة الطبيب بالحكم لم تحتمل الصدمة ، فماتت على الفور . أما الوالد فلم يبق على قيد الحياة سوى عدة أسابيع . والأخوات وزوجاتهما وقفوا متضامنين خلف المتهم ، فهم وسط عائلة « ارمسترونج لا يتحدثون إلا عن « قضيتنا » أو سجيننا أو حراسنا . حتى أطفال العائلة كانوا يعتبرون عمهم بطل العائلة

وأمام هذا الدفاع الحار ، لم يتصور محامى المتهم نفسه أنه هزم ، وطالب باعادة النظر فى القضية حتى التقرير الباحثين فى علم الإجرام الذى جاء يفيد أن القاتل لابد أن يكون أعسر ، بينما الطبيب يستعمل يده اليمنى لم يكف لإعادة النظر فى القضية . وبذلك مضت تسع سنوات حتى جاء اليوم الذى طالب فيه القاضى الفيدرالى بأنه لابد أن يتمتع الطبيب بحقه فى توكيل محام جديد . وبذلك تلغى إدانته . وبسبب موقف الصحافة وشغف أمريكا كلها ، لم يستطع القضاة تبرئة الطبيب ، ولكن اطلق سراحه بضمان مالى قدره ١٠،٠٠٠ دولار ، بشرط ألا تتخذ السلطات أى قرار فى خلال ستين يوما . وبعدها يصبح إطلاق سراحه مطلقا بلا قيد أو شرط . وبمجرد أن أطلق سراحه تزوج الطبيب من ألمانية شابة كانت تراسله باستمرار . وبعد ستة أشهر رفض حكم الاستئناف . وألغى قرار القاضى الفيدرالى ، وطالبت المحكمة بعودة الطبيب للسجن . ولكن المتهم بعث بمحاميه للمحكمة العليا بالولايات المتحدة ، ووجه دعوة للوزارة الفيدرالية للحصول على الموافقة النهائية لاطلاق سراحه أو إعادة التحقيق . وبعد أربعة أيام أخرى وافقت الوزارة على القرار الأخير .

وفتح التحقيق من جديد . وفى أوائل شهر نوفمبر عام ١٩٦٦ ، كان لابد للمحلفين من تشكيل هيئة من سبعة رجال وخمس نساء والعمل المركز إحدى عشرة ساعة متواصلة حتى تم الافراج النهائى عن المتهم . وبعد أن كتب الطبيب قصة حياته حاول فى يوم ١٠ نوفمبر فى عام ١٩٦٧ استئناف عمله كطبيب . لكنه لم يستطع العودة إلى نقابة الأطباء التى طرد منها بعد إدانته ، وجاء الطبيب ليستقر فى فرنسا فى « الكوت دازور » ليس بالقرب من باريس ، ولكن ليس بعيدا عن السكرتارية العامة للأنتربول ، حيث يحفظ ملفه منذ عشر سنوات ، دون أن يعرف أحد ما إذا كان الطبيب ينام ويحلم أحلاما هادئة أو يعانى من كابوس قتل زوجته .

تصميم محمد ابراهيم